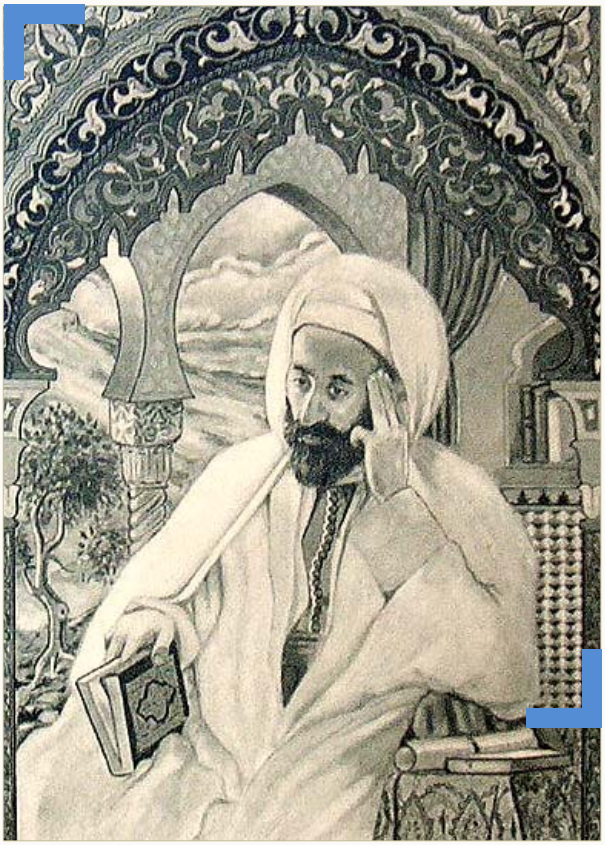

أساليب الإمام عبد الحميد بن باديس في مواجهة سياسة الإدماج

د. فاطمة الزهراء سيدهم

أستاذة محاضرة تاريخ حديث معاصر
قسم العلوم الإنسانية – كلية الآداب واللغات
جامعة معسكر – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فاطمة الزهراء سيدهم، أساليب الإمام عبد الحميد بن باديس في مواجهة سياسة الإدماج.- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن عشر؛ ديسمبر ٢٠١٢. ص ١٣١ – ١٣٧.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

احتفل الفرنسيون بمرور قرن على احتلالهم الجزائر في سنة ١٣٤٩هـ/١٨٣٠م بإقامة حفل ضخم دام شهرًا، أحيوا فيه ذكرى انتصاراتهم على المقاومة المسلحة للأمير عبد القادر وثورات ١٨٧١م وما عقبتها من انتفاضات شعبية، استخدمت فيها قوة الغزاة كل أساليب قهر وإذلال الأهالي. كان الهدف من إحياء هذه الذكرى البغيضة هو إذلال الجزائريين وإشعارهم بالمهانة، لأن حكم فرنسا للجزائر أصبح أمرًا واقعًا (بمنظورهم)، وأن المسألة الأهلية أصبحت من بين الموضوعات الحساسة والمعقدة، وأنه ليس هناك ما يمكن عمله من قبل الغاصبين للشعب العربي الذي يجب أن ينقرض، بحكم طبيعة الأشياء، كما انقرضت بعض القبائل البدائية في أمريكا الجنوبية أمام تقدم الحضارة.

حشد هذا الاحتفال البغيض همة العلماء المسلمين وغيرتهم على دينهم ووطنهم، فقرروا إنشاء جمعية تناهض أهداف المستعمر الفرنسي، وجعلوا لها شعارًا يُعبّر عن مقاصدهم هو: "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"، وانتخبوا العلامة الجليل عبد الحميد ابن باديس (١٨٨٩ – ١٩٤٠م) رئيسًا لها. وقد نجح الإمام في توحيد صفوف العلماء المسلمين من أجل محاربة الأساليب الاستعمارية العديدة من أجل إبادة الأمة العربية المسلمة. وكان سلاحه الرئيس هو بعث الروح الإسلامية في النفوس، ونشر العلم بين الناس. وقد أنشأ لذلك المدارس للناشئة من الإناث والذكور، وألقى العديد من الدروس، وأدار الندوات في المساجد وفي النوادي لعامة الناس.

لم يكن ابن باديس مُصلحًا فحسب، بل كان مُجاهدًا سياسيًا، مُجاهرًا بعدم شرعية الاحتلال لا يخاف في ذلك لومة لائم. وبعد أن ظن الكثير من الناس أن فرنسا نجحت في جعل الجزائر مقاطعة فرنسية، أحيى في النفوس والعقول فكرة الوطن الجزائري، ودخل في معركة مع الحاكم الفرنسي سنة ١٣٥٢ هـ/١٨٣٣ م، واتهمه بالتدخل في الشؤون الدينية للجزائريين. وبعدما كانت مطالب كثير من السياسيين الجزائريين ما بين الحربين العالميتين الحصول على المساواة مع الفرنسيين، ونيل حق المواطنة عن طريق الاندماج، مقابل تخليهم عن دينهم، وتنازلهم عن هويتهم، أفشل الإمام فكرة الاندماج سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٦م, وشن حربًا لا هوادة فيها على دعاة الاندماج والتجنس، لأن ذلك يعتبر أكبر خطر يهدّد الأمة.

مقدمة

إذا كانت الشعوب والأمم تُبتلى بالاستعمار ردحًا من الزمن، تتعرض فيه للإذلال والنهب وطمس الشخصية الوطنية، وتعاني من الوضعية السيئة مدة من الزمن، فإن الوضع لن يدوم أكثر مما فات، وهذا بفضل عزيمة وإرادة أبناء الأمة في إحداث التغيير بكل الأساليب والوسائل. لقد اتخذ الإمام المُصلح العالم المجاهد ابن باديس من الكلمة والقلم أفضل أسلوب لتغيير ما آل إليه المُجتمع الجزائري من جهل وطمس للشخصية الوطنية، وذلك بعدما

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

اعتقد المُستعمر أنه حقق مُبتغاه في طمس الشخصية العربية الإسلامية والقضاء على الدين المُحمدي من نفوس الأهالي بعدما منع العلماء من أداء وظيفتهم.

كان هدف ابن باديس من الإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي، هو نفس ما تهدف إليه الجمعيات والأحزاب الوطنية على اختلاف توجهاتها، المتمثل في تحرير الأفكار والوطن. لم يكن الإمام منضويًا تحت أي حزب، ورغم ذلك فقد شارك مع بعض العلماء في المؤتمر الإسلامي للدفاع عن القضية الوطنية، وترأس الوفد الذي توجه لباريس للتعريف بمطالب الأهالي. وبعدما ذاع صيت الإمام كمدافع قوي عن مبادئ الأمة، لا تهزه مضايقات ومخالفات ومطاردات خصومه وأعدائه، حاولت السلطات الفرنسية جاهدة إغراءه بالمناصب، لكن دون جدوى.

مرور قرن على احتلال الجزائر

احتفل الفرنسيون بمرور قرن على غزو الجزائر في سنة ١٣٤٩ هـ/١٨٣٠م بإقامة حفل ضخم دام شهرًا، أحيوا خلاله ذكرى انتصاراتهم على المقاومة المسلحة للأمير عبد القادر وثورات ١٨٧١م وما عقبتها من انتفاضات شعبية، استخدمت فيها إدارة وجيش الغزاة كل أساليب قهر وإذلال الأهالي. كان الهدف من إحياء هذه الذكرى البغيضة هو إذلال الجزائريين وإشعارهم بالمهانة، لأن الحكم الفرنسي للبلاد أصبح أمرًا واقعًا بمنظورهم، وأن المسألة الأهلية أصبحت من بين الموضوعات الحساسة والمعقدة، وأنه ليس هناك ما يمكن عمله بالنسبة للشعب العربي الذي يجب أن ينقرض، بحكم طبيعة الأشياء، كما انقرضت بعض القبائل البدائية في أمريكا الجنوبية أمام تقدم الحضارة.[١]

بعدما أحكمت السلطات الفرنسية قبضتها على الجزائر أخذت في دعم وجودها عن طريق تطبيق مجموعة من القوانين التي تخدم وُجودها وتُعزّز بقاءها بالبلاد، وتجسد على الميدان بعض ما جاءت من أجله، ألا وهو تنصير الأهالي.[٢] وكانت السلطات الفرنسية قد ضللت حقيقة احتلالها للجزائر بتعهّد (دوبورمون) في المادة الخامسة من وثيقة الاستسلام بضمان حرية المعتقد للسكان "تعطى الحرية للديانة المحمدية وللمكاتب الأهلية ولديانتهم مع احترام تقاليدهم وأملاكهم وتجارتهم وصنائعهم... وأن لا يعارضوا في ذلك. وأن لنسائهم الاحترام التام ومزيد الاعتبار. ويقسم الجنرال على ذلك بشرفه".[٣] وبعد مرور شهرين من توقيع معاهدة الاستسلام أصدر قائد الحملة أمرًا يوم ٨ سبتمبر ١٨٣٠م يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية.

والاستيلاء على الأوقاف، يعني مصادرة الدين المحمدي وجعله رهن إشارة الغزاة، وجعله غير مستقل في إجراءاته وخاضعًا للسلطة الفرنسية المدنية والعسكرية، لأن المساجد والكتاتيب والزوايا ودور التعليم والقائمين عليها تمولهم صناديق الأوقاف. ولما كان هذا الأمر يمُسُّ المسلمين جميعا في معتقدهم، ويُعد خرقًا للتعهدات السابقة، فقد أصدر(دوبورمون) أمرًا ثانيًا في ٧ دجنبر (ديسمبر) ١٨٣٠م كفل به لنفسه حق التصرُّف في الوقف المحمدي. وبهذه الخطوات المتسرعة وضع الفرنسيون أياديهم على الدين، وأصبحوا يتصرفون كما يشاؤون في المساجد والقضاء والتعليم. وقد صرح مدير فرنسي للشؤون الإسلامية: "لقد ذللنا الدين الإسلامي، وبلغ الأمر أن لا يعين إمام أو فقيه إلا إذا شارك في أعمال الجوسسة الفرنسية...".[٤]

وكانت الحملة الفرنسية بتوصية من دائرة الاستعمار التابعة لوزارة الخارجية قد اصطحبت معها أربعة عشر قسّا فرنسيًا جاؤوا ليطبقوا على أرض الجزائر المقولة التالية: "يجب أن يندحر الهلال، حتى تعود الجزائر إلى أحضان الصليب". ومع مر الزمن شارك رجال الكهنوت في نشر المسيحية بالجزائر، مثلما فعله الأب لافيجري ما بين (١٨٧٦- ١٨٧٨م)، حيث أسس ٤٩ كنيسة، و٢٥ خورينة، أبرزها كنيسة سان جوزيف بباب الواد، وسان شارل بآغا، وقد وجد هذا الراهب الدعم والمساندة من الدولة والمعمرين الذين ساهموا بدورهم في تأسيس ٦٨ كنيسة سنة ١٨٨٨م ليرتفع العدد إلى ١٢١ كنيسة سنة ١٨٩٢م. وكان شعار الإدارة الفرنسية هو بناء كنيسة في كل قرية، وسعوا إلى تنصير الأهالي بكل الأساليب والطرق، وكان شعار المطران لا فيجري ما يلي: "انطلاقًا من السيدة الإفريقية ستشهد الجزائر سريان النشاط التبشيري في القبائل والشلف والصحراء".

يبدو أن غاية المستعمرين لم تكن تنصير الأهالي بمعنى الكلمة، لأن الفرنسيين أنفسهم لم يكونوا من الممارسين للشعائر الدينية، بقدر ما كانوا يهدفون إلى شل إرادة المقاومة عند الجزائريين، بدليل ما نُسب من قول للجنرال "بيجو" الذي كان يوصي القساوسة حين يُسلم إليهم الأطفال اليتامى، قائلاً لهم :"اجتهدوا في تحويلهم إلى مسيحيين حتى لا يرفعوا سيوفهم في وجوهنا مرة أخرى...".[٥]

الدين الإسلامي حبيس قرارات الإدارة الفرنسية

استمرت فرنسا في طمس الحقائق والتستر على أفعالها الشنيعة في حق الإسلام والمسلمين، ونجد في الكلمة التي ألقاها الملك الفرنسي على مسامع بعض أعيان قسنطينة حينما زاروا فرنسا، تهدئة للخواطر فقط، وإسكات صوت الأحرار ليتسنى للفرنسيين المُضي قدمًا في سياستهم. وكان من بين الوفد قاضي قسنطينة الشيخ محمد الشاذلي، حيث قال لهم الملك: "... وأنا أبذل جهدي في حفظ دينكم وشريعتكم وبقاء مساجدكم وتعميرها، وإحياء مدارسكم وعلومها...".[٦]

صدر قانون ١٩٠٥ الذي ينص على (فصل الدين عن الدولة)، وطبق على جميع الأديان، ما عدا الدين الإسلامي الذي ظل رهن نزوات قادة الغزاة، اعتقادًا منهم أن إذلال الدّين يكون من خلاله إذلال الجزائريين.[٧] ولم يتوقفوا عن ممارساتهم العدوانية تجاه الشعب الجزائري بكل الوسائل والطرق، وبعد مرور قرن على غزوهم للجزائر أقاموا احتفالات بهيجة دامت شهرًا بأيامه ولياليه الصاخبة، أحيوا فيه ذكرى انتصاراتهم على المقاومة المسلحة للأمير

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

عبد القادر وثورات ١٨٧١ وما عقبتها من انتفاضات شعبية عارمة، استخدم فيها الفرنسيون كل أساليب القهر والتعذيب للأهالي.[٨] وكان هدفهم من وراء إحياء هذه الذكرى هو إذلال الجزائريين وإشعارهم باستمرار وقع خنجر الغزاة على رقابهم. هذا الخنجر الذي وكزوا به نفوس وضمائر الجزائريين استمر في الغوص داخل الكيان الوطني، بعدما كانت دوافع ابنة الكنيسة الكاثوليكية المفضلة ورغبتها المُلحة، هي القضاء على الدين المُحمدي الذي جندت له كل أحقادها الدفينة منذ هزائمها على يد المسلمين أيام الحروب الصليبية.

بمقتضى قانون "الأندجينا" اكتسبت السلطة الإدارية التي تقوم مقام السلطة التنفيذية بالجزائر اختصاصات وصلاحيات السلطة القضائية، وسقطت بذلك الضمانات (الغير مطبقة على الواقع) لحرية الأفراد والجماعات، بحجة المحافظة على الأمن وسلامة الأشخاص. وتمثلت هذه الاختصاصات في عدة نقاط منها:

(١) للحاكم العام الحق في توقيع العقوبات دون محاكمة.

(٢) الأخذ بمبدأ المسؤولية الجماعية حينما يذنب فرد، فإن الجماعة هي التي تجزي عنه.

(٣) يحق للمتصرفين الإداريين ورؤساء البلديات حبس الأشخاص ومصادرة ممتلكاتهم دون اللجوء إلى القضاء.

(٤) إجبار القبائل الأمازيغية على التقاضي لدى المحاكم الفرنسية.

(٥) إصدار حكم بالسجن، أو التغريم، أو مصادرة الممتلكات للمخالفات التالية:

- فتح مدرسة أو مسجد أو زاوية بدون ترخيص.
- رفض العمل في مزارع المُعمرين .
- التأخر في دفع الضرائب.
- التلفظ بعبارات معادية لفرنسا.
- التجمع لأكثر من خمسة أفراد.
- عصيان القياد.
- ترك محل الإقامة بدون رخصة.[٩]

إنتشار الوعي في الأوساط المثقفة

كان لنتائج الحرب العالمية الأولى أثر واضح على المشهد السياسي الجزائري، فمن جهة برز الوعي السياسي لدى الجزائريين تجسد في ميلاد الأحزاب الوطنية على اختلاف اتجاهاتها، ومن جهة أخرى، نجد فرنسا تمجد وجودها في الجزائر، وتقدم وعودًا بإجراء إصلاحات براقة، وفي الوقت نفسه تُضيق على مناضلي الحركة الوطنية بمبررات واهية. ولكي تقطع الإدارة الفرنسية أشواطًا في طريق تغريب الأهالي وطمس شخصيتهم الوطنية، اهتموا قليلاً بتعليم الأفراد في مدارسهم. ولما كان التعليم هو المدخل الرئيس إلى المدنيّة والعصرنة، فقد كثف القائمون على المنظومة التربوية في الجزائر على جعل التعليم باللغة الفرنسية وسيلة إدماج كثير من الأهالي. لكنهم بالمقابل كانوا يختارون أشخاصًا مُعيّنين يسمحون لهم بمتابعة تعليمهم الابتدائي، ثم ينتقون النخبة ويسمحون لهم الولوج إلى المدارس الثانوية.

لكن هذا الصنف من المُتعلمين كان الجزائريون ينظرون إليهم نظرة ازدراء، عكس نظرتهم للمتخرجين من الجامعات الإسلامية الكبرى كالقرويين والزيتونة والأزهر الشريف.[١٠] ولم يرض الأهالي بسياسة فرنسا الرامية إلى اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية، وإقصاؤها من الدوائر الرسمية، وإحلال اللغة الفرنسية مكانها، ثم التضييق على العلماء والمعلمين. تهدف فرنسا من وراء سياستها إلى فرنسة الجزائر فكرًا، ولغة، وسلوكًا. غير أن الأهالي قاطعوا المدرسة الحكومية واعتبروا تسجيل أبنائهم بها مدخلاً إلى التنصير والخروج من الملة. وأمام العقبات التي وضعتها الإدارة الفرنسية أمام الحركة الإصلاحية وجهت جريد الشهاب والنجاح نداءات من أجل تعميم التعليم العربي،[١١] لأن الناس صاروا ينظرون إلى المراسيم والمؤسسات الفرنسية كأساليب للتنصير.

دور الزوايا في تنوير الرأي العام

كان للزوايا في بداية الأمر دور فعال في نشر الثقافة العربية الإسلامية ومحو الأمية بقدر كبير، وكانت بمثابة مراكز دينية وثقافية ومدارس قرآنية للكبار والصغار والبنات، ولم تنتبه الإدارة الفرنسية لخطورة أنشطة الزوايا إلا بعد مرور وقت ليس بالقصير، وذلك بعدما تيقنت أن الزوايا تعمل على إفشال برامجها التغريبية، فعملت بعد ذلك على استمالة المرابطين إليها وتقديم المساعدات لهم للوقوف في طريق الحركة الإصلاحية وإحداث الصدع بين العلماء، لأن تلك الإصلاحات بدأت أنشطتها تشوش على البرامج التي تحيكها الإدارة الفرنسية لتغريب وتنصير الأهالي، أو على الأقل إبعادهم عن أداء المشاعر الدينية كمرحلة أولى في السياسة الرامية إلى دمج الشعب الجزائري برمته، وانسلاخه عن هويته العربية الإسلامية.

كان المؤيدون لفكرة الاندماج من الجزائريين يرون أن هذا القانون سيحققون به كافة حقوقهم، ويحصلون على الامتيازات التي يتمتع بها الفرنسيون. أما طلب التجنس فكان مطلبًا شخصيًا حسب قانون ١٨٦٥م، والقانون المعدل له لسنة ١٩١٩م الذي ينص على أن الجزائري لا ينال الحقوق السياسية إلا إذا تجنس بالجنسية الفرنسية. ولما وظفت جمعية العلماء المسلمين جميع العلماء المؤمنين بسياسة الإصلاح التي خطط لها الإمام عبد الحميد ابن باديس فقد أحدثوا تيارًا جارفًا استطاعوا بواسطته على مضض تغيير أوضاع العباد دينيًا وعلميًا وأخلاقيًا واجتماعيًا، فانقاد النواب بالمجالس النيابية والمحلية إلى شعار "الحصول على الحقوق الفرنسية، دون التنازل عن الحالة الشخصية الإسلامية".[١٢]

ابن باديس في مواجهة دعاة التغريب

إذا كانت فئة من الجزائريين قد استقبلت بالترحاب مشروع "بلوم فيوليت" الذي يعطي بعض الحقوق للذين يوافقون على

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الاندماج، فإن ابن باديس قد نبه في كثير من المرات إلى خطورة سياسة الإدماج والتجنس، وآثارها الوخيمة على الشخصية الوطنية والدين المحمدي. لقد حشد الاحتفال البغيض بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر همّة وغيرة العلماء المسلمين على دينهم ووطنهم، فقرروا إنشاء جمعية تناهض أهداف المستعمر الفرنسي، وجعلوا لها شعارًا يعبر عن مقاصدهم هو: "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"، وانتخبوا العلامة الجليل عبد الحميد ابن باديس رئيسًا لها.

نجح الإمام في توحيد صفوف العلماء المسلمين وانشأ جمعية العلماء المسلمين التي كانت عبارة عن "حزب ديني إسلامي"،[١٣] وطابعها غير سياسي من أجل محاربة الأساليب الاستعمارية العديدة للقضاء على الأمة العربية المسلمة. وكان سلاحه الرئيس هو بعث الروح الإسلامية في النفوس، ونشر العلم بين الناس. وقد أنشأ لذلك المدارس للناشئة من الإناث والذكور، وألقى الدروس في المساجد لعامة الناس، وخاض حملة عشواء ضد الزاوية العلوية وشيخها ابن عليوة التي كانت تنشر الخرافات والأباطيل، وتعرضت مجلتها البلاغ الجزائري (١٩٢٦ - ١٩٤٣) بالرد العنيف على جمعية العلماء المسلمين. وقد تسبب ذلك لابن باديس في كثير من المشاكل مع السلطات الفرنسية، ووصل غيض أذناب الاستعمار إلى أن دبّروا مكيدة اغتيال الإمام وهو راجع من المسجد إلى سكناه، لكن الله أنجاه بفضله.

لم يكن ابن باديس مُصلحًا فحسب، بل كان مُجاهدًا سياسيًا، مُجاهرًا بعدم شرعية الاحتلال لا يخاف في ذلك لوم لائم. شخصيته متعددة الجوانب، متنوعة المواهب، فهو عالم وارع، وفقيه مجتهد في أمور الدين، مساير لمقتضيات العصر وظروف الحياة، مجدد في طرق التعليم،[١٢] ولم يكن يفكر في شيء أكثر من تفكيره في إصلاح أحوال البلاد، وإنقاذ الشخصية الوطنية من الانحلال والمسخ، والوقوف في وجه من يستغلون الدين الإسلامي للإبقاء على الخرافات وإتباع الأباطيل، وعبادة العباد من دون الله الواحد القهار، وقد آمن بأن العمل الأول لمقاومة الاحتلال الفرنسي وإخراجه من البلاد هو تعليم العباد وإعداد الناشئة لحمل نبراس الحرية.

ابن باديس المُعلم المُصلح

كانت بداية عبد الحميد ابن باديس نحو التعليم من الجامع الكبير، لكن إمام المسجد ابن الموهوب منعه من التدريس في المسجد بحجة عدم تلقيه إذنًا مُسبقًا من السلطات الفرنسية. وكان لهذا التصرف المهين لشخص الشاب ابن باديس في المسجد أثر كبيرًا على نفسيته، لكنه سرعان ما تجاوز المسألة باعتباره مجاهدًا ومصلحًا وداعيًا إلى الله، واعتبر هذا التصرف كحجرة عثرة في سبيل طريق الإصلاح الطويل الشائك. بعد مُدة قصيرة من تلك الحادثة شرع ابن باديس في تعليم الأطفال الذين بلغوا سن التعلم في مدرسة بمسجد سيدي بومعزة، أطلق عليها اسم "المكتب العربي"، ثم نقلها إلى الجمعية الخيرية، ويقول ابن باديس في هذا الصدد: "كان التعليم المسجدي بقسنطينة قاصرًا على الكبار، ولم يكن للصغار إلا الكتاتيب القرآنية، فلما يسّر الله لي الانتصاب للتعليم سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م جعلت من جملة دروسي تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة وآخر العشية..."."[١٤] وبعد تأثير هذه الجهود في مجال التعليم المدرسي الحر بقسنطينة قام المخلصون من العلماء والعامة بإنشاء مدارس للتعليم القومي في مناطق أخرى من المنطقة الشرقية، وعمت بعد ذلك كل أرجاء الوطن عندما توفرت الإمكانيات وسمحت الظروف بذلك. وكان هدف ابن باديس من التعليم أن جعله مدخلاً حيويًا لتحقيق الحركة الإصلاحية المتمثل في بناء جيل يحمي العروبة والوطن والعربية والدين والتاريخ وتحصين المجتمع ضد الاندماج.

كان ابن باديس يرى أن المخرج الحقيق لتغيير الوضع الذي آل إليه المجتمع الجزائري لا يكون إلا بإرادة الشعب الجزائري على اختلاف أطيافه، وذلك بعدما شارك في المؤتمر الإسلامي باسمه الشخصي، وترأس الوفد الذي قابل الوزير الفرنسي بباريس للمطالبة بفصل الدين عن الدولة تنفيذًا لمرسوم ٢٧ سبتمبر١٩٠٧م، ومطالب أخرى، وقد أجابهم الوزير بقوله: "أقول لكم بكل صراحة: إنني أعارض كل المعارضة في أن أعطيكم النيابة البرلمانية ما دمتم على حالتكم الشخصية الإسلامية..."."[١٥] وأكد في هذا المجال قوله: "لا تتغير السياسة الاستعمارية في الجزائر عن طريق وفود تذهب إلى فرنسا، ولا بلجان تبعثها الحكومة العليا إلى الجزائر، ذلك أن حكومة الجزائر الاستعمارية أقوى من حكومة فرنسا ذاتها هنا... فالوفود إذن لا تستطيع أن تغير شيئًا، ولأن الشعب الجزائري هو الذي يستطيع أن يُغير كل شيء..."."[١٦]

وقد كانت عروبة الجزائر وإسلامها من بين القضايا التي دافع عنها ابن باديس بكل ضراوة وخاض معارك سياسية وفكرية ضدّ حكام فرنسا وسياستها، وضد النخبة التي انساقت تشكك في وجود الكيان الوطني تارة وتنكره تارة أخرى. بعدما ظن كثير من السياسيين أن فرنسا نجحت في جعل الجزائر مقاطعة فرنسية بإصدارها قوانين ومراسيم ومشاريع تصب كلها نحو هدف واحد هو فرنسة لسان الأهالي، وتشويه تاريخهم الوطني، والقضاء على مقومات الشخصية الوطنية، في هذه المرحلة المتميزة بمرحلة ما بين الحربين أحيى الإمام فكرة الوطن الجزائري، وعمل على نشر التعليم العربي الإسلامي بين المتعلمين الصبية والشباب والكهول بما فيهم النساء.

تأثير سياسة الإستعمار على الشعب الجزائري

كان دخول ابن باديس ميدان الإصلاح متخذًا الجامع الأخضر للنضال بالكلمة والقلم لإنقاذ الشعب الجزائري وجمع شمله وتوحيده على كلمة سواء للوقوف في وجه السياسة الماكرة، بعدما ضنّ المستعمر أنه لم يبق له إلا القليل من الجُهد لتنصير الجزائريين والقضاء على لغتهم وإدماجهم عن آخرهم. ويقول ابن باديس في

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ذلك: "لو جئنا شعبنا بعد عشرين سنة لما أدركنا فيه قابلية للعلاج. ولكن الله أراد خيرًا بهذا الشعب، بعث فيه من آمن بنشوره، بعد إيمان الكثير بموته..."[١٧] وكان الاستعمار الفرنسي قد ركز هجومه على اللغة العربية لضرب المسلمين بعضه ببعض، وعزل الأمازيغ محاولاً جعلهم أتباعًا له لتنفيذ سياسة التغريب وطمس الشخصية الوطنية.

في المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين (٢٠ أبريل ١٩٣١) دعا المؤتمرون إلى ضرورة تدريس اللغة العربية وتعميم نشرها، وإلى كيفية العمل من أجل تحقيق هذه الغاية. كما شدّد على ضرورة تدريس التاريخ الإسلامي. وكانت هذه المطالب تصب في مطالب الجمعية والأحزاب الوطنية التي تدعو إلى إبراز الشخصية الوطنية.[١٨] بعدما نجح الإمام ابن باديس في توحيد صفوف العلماء المسلمين لمواجهة الأساليب المُتعددة للقضاء على الأمة العربية الإسلامية، وبعث الروح الإسلامية في النفوس، ونشر العلم بين الناس، دخل في معركة مع الحاكم الفرنسي سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، واتهمه بالتدخل في الشؤون الدينية للجزائريين على نحو مخالف للدين والقانون الفرنسي.[١٩]

بعدما كانت رغبة كثير من السياسيين الجزائريين ما بين الحربين طلب الحصول على المساواة مع الفرنسيين، ونيل حق المواطنة عن طريق الاندماج، مقابل تخلهم عن دينهم، وتنازلهم عن هويتهم، فقد أفشل الإمام فكرة الاندماج سنة ١٣٥٣هـ /١٩٣٦م، وشن حربًا لا هوادة فيها على دعاة الاندماج والتجنس، لأن ذلك يعتبر أكبر خطر يهدّد الأمة، وهذا بعدما تعاظم الوعي الديني في أوساط الأمة، وأحبط أساليب الطرقية وبدعها، وعمل على فهم الدين كما يراه السلف الصالح بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله المصطفى، وبهذا الفهم الصحيح للدين توثقت عُرى الأخوة بين الجزائريين على اختلاف انتماءاتهم السياسية والأيديولوجية، واختلاف لغة تعلمهم، وبات من المحال فصل الدين عن السياسة.

إذا كانت فئة من الجزائريين قد رضيت بمشروع (فيوليت) الذي يُعطي بعض الحقوق للذين يوافقون على الاندماج، فإن ابن باديس قد نبّه إلى خطورة سياسة الإدماج والتجنس، وحارب دعاتهما، لأن المستعمر كان يريد إدماج أرض الجزائر في فرنسا، وسلخ الجزائريين عن مقوماتهم بالابتاع والذوبان، فتحول بعد ذلك أولئك النواب من دعاة التجنس إلى المطالبين بفصل الدين عن الدولة، وإلزامية تعليم اللغة العربية ضمن المناهج الدراسية، بعدما تبين لهم مقاصد الفرنسيين الحقيقية، وهذا بفضل تعاظم الوعي الديني الذي كرس ابن باديس وقته لغرسه في نفوس الجزائريين على اختلاف تكوينهم وانتماءهم السياسي، وأحبط أساليب الطرقية التي أدخلت البدع والخرافات كجزء من الدين، والإسلام بريء منها، وعاد الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله تدريجياً، وفهم السياسيون أهداف فرنسا من وراء قوانينها. وبهذه المواقف المشرفة للنخب السياسية الوطنية أصبح هؤلاء المُنتخبون يمثلون الجناح الإصلاحي للعلماء لدى الإدارة الفرنسية، ويعبرون عن مطالب الأهالي.

إن جمعية العلماء المسلمين التي لم تكن تمارس السياسة علنًا، كانت ترمي إلى ما ترمي إليه الأحزاب السياسية من تحرير الأفكار، والوطن، والشعب، وهذا ما يفهم من خطبة الإمام: "وهذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصبح هي فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين، هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة..."[٢٠].

مجهود ابن باديس من أجل الإصلاح

الانتماء إلى الجزائر لا يكون إلا بالانتماء للعناصر المكونة للشخصية الوطنية، وتحريرها من أشكال الجهل، وتثقيف الناس وتعليمهم اللغة العربية، وتاريخهم الوطني وأمور دينهم. وحتى يحس الجزائري أنه ينتمي لهذا المجتمع عليه أن يعيش واقع مجتمعه، لأن الانتماء لا يكون ببطاقة الهوية التي تمنحها الإدارة الاستعمارية، أو كسب الجنسية لطالب التجنس، إنما تكون بالانتماء للوطن الذي تجعله يتفاعل مع قيم مجتمعه العربي المسلم. كان ابن باديس يكرس جهدًا كبيرًا لإصلاح أحوال العباد والبلاد، وإنقاذ الشخصية الوطنية من الغوص في أحضان الإدارة الفرنسية، وقد كلفه ذلك التصدي للاستعمار وأذنابه بكل ما أوتي من قوة ودعم من زملائه العلماء، والنضال الفكري والسياسي والثقافي وبعث تعليم اللغة العربية في كامل أرجاء الوطن السليب، ومحاربة البدع والخرافات والتمسح بالأضرحة والشعوذة.[٢١]

لم يكن الإمام منضويًا تحت أي حزب، ورغم ذلك فقد شارك مع بعض العلماء في المؤتمر الإسلامي للدفاع عن القضية الوطنية. وشارك في الوفد الذي توجه لباريس من أجل التعريف بمطالب الأهالي. وبعدما ذاع صيت الإمام كمدافع شهم كالطود عن مبادئ الأمة لا تهزه مخالفات ولا مطاردات خصومه وأعدائه، حاولت السلطات الفرنسية جاهدة إغراءه بالمناصب، لكن الجبل ما هزته ريح. كان ردّ الفعل عما كتبه الإمام ردًا على فرحات عباس، الذي أنكر عليه ما ادعاه أثرها في كل الأوساط "أحدثت كلمتنا الصريحة أثرها المطلوب، وكان لها الدور العظيم الذي كنا نتوقعه لها، فتلك أول مرة جوبهت فيها الحكومة، وجوبه فيها رجال السياسة بحقيقة ناصعة، هي عين الصواب الذي تعتقده الأمة..."[٢٢].

لا يمكن تغيير أسلوب حياة شعب في بضع سنين وبصورة فجائية، خاصةً عندما يكون الأمر يتعلق بشعب يستطيع أن يتذكر بأنه كان في يوم من الأيام سيّد مُحترم. وقد خاض الشيخ ابن باديس في معركته التي حضر لها جيدًا ضد الاستعمار ودعاة التغريب والطُّرقية، على أرضية صلبة من الإيمان بالله، والثقة بشعبه المسلم. وهو في ذلك يقول "سجون واتهامات ونكبات: ثلاث

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

لا تبنى الحياة إلا على أسسها. وأمة أخذت تقدم الضحايا في سبيل سعادتها، حقيقة بأن تنال السعادة وبأن تهنأ بها...".[٢٣]

سعت الحكومة الفرنسية بكل الوسائل إلى الحدّ من نشاط الجمعية، وذلك بتعطيل الجرائد التي كانت تصدرها، وإغلاق مدارسها، وملاحقة معلمها وعلمائها وإلحاق شتى التهم بهم. ورغم كثرة المضايقات إلا أن الجمعية لم تستسلم أبدًا، وذلك لكون الإمام وإخوانه العلماء أعدوا أنفسهم لمثل ما يتعرضون له. أما الإدارة الفرنسية فكانت تسابق الزمن وتصدر قرارات تلو القرارات، إلى أن أصدرت قرار منع نشر الجرائد باللغة العربية على اعتبار أنها لغة أجنبية، ويتطلب ذلك إذنًا مسبقًا من الجهات الفرنسية المعنية.[٢٤]

استعان ابن باديس في نهجه الإصلاحي على الكلمة الطيبة، وتعليم الناشئة، وإصدار الجرائد لنقل الأفكار الإصلاحية، ومقاومة مزاعم أعداء الأمة العربية الإسلامية بتاريخها المجيد، ولغتها العربية الضاربة أطنابها في المجتمع الجزائري. سخر ابن باديس والعلماء أقلامهم خدمة للإصلاح الديني، وحاربوا الخرافات والبدع التي كانت تروج عند المُبتدعين من الطرقية، كما قاوموا أفكار الفرنسة والتغريب التي كان الاستعمار وأذنابه يبثونها في عقول الشباب، وذكروهم بأن الجزائر أمة لها قوميتها ودينها ولغتها وتاريخها المجيد، لا ينقصها شيء من مقومات الأمم.[٢٥] استخدم الإمام في كثير من مقالاته بأسبوعية الشهاب نوعًا من المرونة السياسية، حتى لا تتعرض كسابقاتها من الجرائد إلى التشميع، فكان يخفف اللهجة مع السلطة في فرنسا، بينما يحتدّ خطابه مع أقطاب الاستعمار وأذنابه. وقد تحولت الشهاب إلى مجلة تؤرخ للحركة الفكرية في مرحلة من تاريخ الجزائر، إلى أن توقفت عن الصدور بقرار من الوالي العام شهر أوت (أغسطس) ١٩٣٩م بعد دخول فرنسا الحرب العالمية الثانية.[٢٦]

كان إمامنا الجليل ذو شخصية متعددة الجوانب، متنوعة المواهب، فهو عالم ورع، وفقيه مجتهد في أمور الدين، مساير لمقتضيات عصره، مجدد في أساليب التعليم التي اتخذ منها ركيزة الإصلاح الوطني، إنه زعيم في النضال السياسي، واسع الاطلاع بما يدور حوله وفي العالم. كان يرى أن الفصل بين عناصر الشخصية الوطنية، هو نوع من الفصل بين مكونات الشيء الواحد، الذي إذا حذفنا منه عنصرًا ذهبت حقيقته، وأن الانتماء إلى الجزائر لا يتم إلا بالانتماء إلى جميع العناصر المكنة للأمة الجزائرية المسلمة، فالجزائري لا يكون جزائريًا إلا إذا عاش خصوصيات مجتمعه، والانتساب لا يكون ببطاقة الهوية، أو كسب الجنسية. والفرد الذي لا يحترم تلك المقومات ولا يتفاعل معها، فرد تائه، فاقد الإحساس بذاته وكُنهه، لأن قيمة الفرد بقيمة أمّته.

إن تفكير الإمام المجدد المُصلح ينصبُّ كثيرًا في العمل على إصلاح أحوال البلاد، وإنقاذ الشخصية الوطنية، والوقوف في وجه الإدارة الفرنسية من النّيل من وحدتها وتماسكها، وقد تفرغ الإمام لتحقيق هذا الهدف بكل ما أوتي من عزم وحسم خدمة للبلاد والدين والعباد. وقد تطلب ذلك، التّصدي للاستعمار وأذنابه وقوانينه بحكمة وبصيرة. ويرى ابن باديس أن المخرج الحقيق لتغيير الوضع الذي آلت إليه الأمة الجزائرية لا يكون إلا بإرادة وعزيمة جميع مكونات الشعب المسلم، حيث كان دائم التفكير في إصلاح أحوال العباد وإنقاذ الشخصية الوطنية من التفكك والذوبان بسبب سياسة فرنسا المتبعة في هذا المجال منذ أن وطئت جيوش الغزاة أرض الجزائر، والوقوف في وجه محاولات النيل من وحدة شعبها الموحد منذ أجيال عديدة.

خاتمة

لقد استطاعت الجزائر بفضل ما منحها الله من خيرات وموقع جغرافي ممتاز أن تجلب لنفسها الحسد وأطماع أعداء الهلال. وبعدما احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م، سارعت إلى إصدار جملة من المراسيم والقوانين تصُبّ في خانة ضمّ الجزائر للكيان الفرنسي، غير أن عزيمة الرجال المُخلصين من الأمة الجزائرية المُسلمة لم يستكينوا، ورفعوا بالكلمة والقلم والبندقية راية مُجاهدة النفس والأعداء، لإبقاء الأمة الجزائرية محافظة على دينها وعقيدتها. وهل يُعقل أن يستمر شعب في تبعية مُغتصبه بعدما أنار له العلماء المُصلحون الطريق، وسلحوهم بالإيمان بالله وفتحوا لهم صفحات تاريخهم المجيد ليتعرفوا على أعمال آبائهم الصناديد، ليسلكوا سبيل العزة والكرامة والتحرر من البدع والجهل ونير الاستعمار.

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) فضيل(عبد القادر) ورمضان (محمد الصالح)، **إمام الجزائر- عبد الحميد بن باديس**. شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع. طبعة ٢٠١٠م. ص:٣٢.

(٢) عباد (صالح)، **الجزائر خلال الحكم التركي (١٥١٤ - ١٨٣٠)**. دار هومة. الجزائر. طبعة ٢٠٠٥. ص: ٢٥٩.

(٣) الجيلالي (عبد الرحمن)، **تاريخ الجزائر العام**.ج-٣. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ١٩٩٤/١٥١٥. ص: ٤٠٥.

(٤) العسلي (بسام)، **عبد الحميد بن باديس، وبناء قاعدة الثورة الجزائرية**. دار الرائد- دار النفائس. طبعة ٢٠١٠م. ص:٦٥.

(٥) السائحي (محمد العلمي)، **شبكة معرفية** - ٣٠ أبريل ٢٠٠٨.veecos.net

(٦) الجيلالي (عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص: ٤٠٥.

(٧) فضيل(عبد القادر)، المرجع السابق. ص:٣٢.

(٨) العسلي (بسام)، المرجع السابق. ص:٦٥.

(٩) **منتديات الشامل**- قسم التربية والتعليم- تاريخ الإتاحة ١١ أكتوبر ٢٠١٠.

(١٠) قنان (جمال)، **التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار (١٨٣٠-١٩٤٤)**. منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤. طبعة خاصة. الجزائر ٢٠٠٧. وزارة المجاهدين. ص: ١٦٩.

(١١) مراد (علي)، ترجمة يحياتن (محمد)، **الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر**. طبعة خاصة.٢٠٠٧. ص:١٦٥.

(١٢) العسلي(بسام)، المرجع السابق، ص: ١١٦.

(١٣) مراد (علي)، ترجمة يحياتن (محمد)، المرجع السابق. ص:١٥٠.

(١٤) فضيل(عبد القادر)، المرجع السابق، ص: ٥٧.

(١٥) فضيل(عبد القادر)، المرجع السابق، ص: ٤٢.

(١٦) فضيل(عبد القادر)، المرجع السابق، ص: ١٤٦.

(١٧) العسلي(بسام)، ص: ١٢٢.

(١٨) العسلي(بسام)، المرجع السابق، ص:١٢٧.

(١٩) قنان(جمال)، المرجع السابق، ص:٢٠٣.

(٢٠) **الإمام عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ / ١٩٤٠م)**. متاح بتاريخ ٢٢ نوفمبر ٢٠١١ على الرابط: (yabeyrouth.com).

(٢١) الجيلالي(عبد الرحمن)، المرجع السابق، ص: ٣٥٦.

(٢٢) فضيل(عبد القادر)، المرجع السابق، ص٦٣.

(٢٣) فضيل(عبد القادر)، المرجع نفسه، ص:١٤٧.

(٢٤) العسلي (بسام)، المرجع السابق، ص:٩٨.

(٢٥) ناصر (محمد)، **الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ إلى ١٩٥٤**. دار الغرب الإسلامي. طبعة ثالثة. بيروت ٢٠٠٧/١٤٢٧م. ص:٩٧.

(٢٦) ناصر(محمد)، المرجع نفسه. ص:١٠١.